الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية

شعبة الفلسفة

اعمال موجهة لمقياس: مصادر فلسفية للسنة الأولى ماستر :ف تط

مصادر فلسفية

استاذ المادة: واحك مراد

1 - تحليل نص: من مصدر فلسفي لجون لوك التسامح:

ولكن إذا سئلت: ما هي الوسائل التي بها، تتأسس القوانين الكنسية ،إذا كان من اللازم خلوها من أية قوة قهرية؟ فجوابي على النحو الآتي: ينبغي أن تؤسس بوسائل ملائمة لطبيعة هذه القوانين، حيث تكون الممارسة البرانية للعقيدة عديمة الفائدة والمنفعة إذا لم تصدر عن اقتناع واستحسان من العقل. والأسلحة التي تكون في حوزة أعضاء هذا المجتمع في الدعوة : الإنذار والنصيحة. وإذا لم تكن هذه الوسائل كافية لإصلاح الآثمين وإقناع الخطاة فلا يسعنا إزاء هؤلاء المعاندين. الذين ليس لديهم أي أساس نقيم عليه أملا في إصلاحهم، إلا استبعادهم وعزلهم عن المجتمع. وهذه هي أقصى وأعظم قوة تخص السلطة الكنسية. وليس من عقاب آخر يمكن أن يصيبهم سوى بتر العلاقة بين الجسم والعضو المبتور. والإنسان المحكوم عليه بهذا العقاب يمتنع أن يكون جزءا من الكنيسة.

وتأسيسا على ذلك دعنا نتساءل إلى أي مدى يمتد واجب التسامح، وما الذي يتطلبه هذا الواجب من كل إنسان؟

أولا : أعتقد أن أية كنيسة ليست مكلفة، بحكم واجب التسامح، بالاحتفاظ بأي إنسان في حضنها، يصر- رغم التنبيهات- على الخروج على قوانين المجتمع، لأن هذه القوانين هي أساس الرباط الاجتماعي.

فإذا سمح بانتهاكها من غير عقاب فإن المجتمع سرعان ما يتفكك. ومع ذلك فإنه في مثل هذه الحالة يجب ألا يضاف إلى الحرم(الطرد من الكنيسة) أي خدش سواء بالكلمة أو بالفعل مما يترتب عليه إحداث ضرر في بدنه أو في ممتلكاته، لأن استخدام القوة(كما قلنا) من اختصاص الحاكم وحده، كما أنه لا يحق لأي إنسان، في أي وقت، استخدام القوة إلا للدفاع عن النفس ضد أي عنف غير مشروع. إن الحِرم لا ينتزع، ولا يمكن أن ينتزع من المحروم أيا من خيراته المدنية التي يمتلكها، لأن هذه الخيرات تستند إلى حماية القانون المدني والحاكم المدني، إن قوة الحرم محصورة فيما يلي: عند صدور قرار المجتمع فإن القائمة بين الجسم (الهيئة) وأحد أعضائه تنفصم عراها، وتنتهي الرابطة، وبالتالي تنتهي المشاركة المتعلقة بما يمنحه المجتمع لأعضائه، والتي ليس لأحد أي حق مدني عليها، لأنه ليس ثمة ضرر مدني يقع على المحروم إذا امتنع الكاهن بعد انتهاء القداس الإلهي من إعطائه الخبز والخمر اللذين لم يبتعهما بماله الخاص بل بمال الآخرين.

ثانيا : ليس من حق أي شخص، بأي حال من الأحوال، أن يحقد على شخص آخر في شأن متعه المدنية لا لسبب إلا لأنه ينتمي إلى كنيسة أخرى أو يؤمن بدين آخر. فكل الحقوق والامتيازات التي تخص هذا الشخص من حيث هو إنسان أو من حيث هو مواطن من اللازم أن تكون محفوظة له ودون أن تنتهك. ذلك أن هذه الحقوق والامتيازات لا علاقة لها بالدين. ومن ثم يجب ألا يلحق هذا الشخص أي عنف أو ضرر سواء كان مسيحيا أو وثنيا. نعم، يجب ألا نقنع بوضع معايير ضيقة للعدالة والمحبة والإحسان، بل يجب أن نضيف أيضا السماحة، فهذه كلها يوصي بها الإنجيل، وينصح بها العقل، ومطلوبة منا بحكم العلاقة الطبيعية بين الشخص وزملائه الآخرين فإذا ضل إنسان الطريق السوي فذلك من سوء حظه، ولا يترتب على ذلك أي ضرر يلحق بك، ومن ثم فلا يحق لك معاقبته في أموره الدنيوية، لمجرد أنك تعتقد أنه سيكون بائسا فيما يحدث له في الحياة الآخرة.

وما أقوله عن التسامح المتبادل بين الأشخاص المتباينين دينيا أقوله أيضا عن الكنائس التي تكون علاقتها فيما بينها مثل العلاقة القائمة بين الأشخاص.وليس لأي من هؤلاء حق التشريع للآخر، بل ليس للحاكم هذا الحق (كما يحدث أحيانا) سواء كان حاكما لهذه الجماعة أو لتلك، لأن الحكومة المدنية ليس في إمكانها أن تمنح حقا للكنيسة، كما أن الكنيسة ليس في إمكانها أن تمنع حقا لهذه الحكومة، ولهذا فإن الكنيسة تظل دائما كما هي سواء انتمى إليها الحاكم أو انفصل عنها، أعني تظل مجتمعا حرا ذا إرادة. إنها لا تطلب قوة السيف عندما ينتمي إليها الحاكم، ولا تفقد حق التعليم والحِرم عندما ينفصل عنها، إنه حق ثابت لأي مجتمع حر، أعني أن لديه سلطة في طرد أي عضو ينتهك قوانينه ولكن ليس في إمكانه، عند انضمام أعضاء جدد، أن يكون له سلطة على من ليسوا من أعضائه ولهذا فإن السلام والعدالة والصداقة أمور ينبغي أن تراعيها كل كنيسة مثلما يراعيها الأفراد من غير إدعاء بالتعالي.

المصدر: جون لوك، التسامح، ترجمة: منى ابو سنة، تقديم ومراجعة : مراد وهبة.

2 - تحليل النص:

يعود النص إلى الفيلسوف الانجليزي جون لوك ولد في(1632 وتوفي 1704)، كتب لوك رسالة في التسامح في عام 1689، في سياق الصراع بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانت حيث استمرت الحرب بين الطائفتين من سنة : 1618 إلى 1648، في عصر أخذت مبادئ النزعة الإنسانية العقلية تجد مكانتها وطريقها بعمق في المجتمع الأوروبي الذي سيطرت عليه الكنيسة طوال القرون الوسطى، لهذا فإن رسالة التسامح تعتبر مصدر فلسفي يعبر عن التحولات الجوهرية التي شهدتها أوروبا في التحول من أوروبا المسيحية إلى أوروبا العلمانية. وكمؤسس معرفي وفلسفي للممارسات السياسية والاجتماعية، فكيف يعيد جون لوك للمجتمع الأوروبي لحمته بعد أن مزقته الحروب الدينية، وكيف يرتب العلاقة بين الكنيسة والدولة في تنظيم المجتمع؟

موقف جون لوك:

- على الكنيسة أن تلتزم في إصلاح الأفراد بالطرق الدعوية والنصيحة وليس باستخدام القهر والقوة، فالسلطة المدنية هي التي تتكفل بتطبيق القانون على المجرم في حق الحقوق العامة.
- ويرى لوك انه لا يجب ان يكون الاعتقاد الديني او المذهبي سببا في فقدان الحقوق المدنية والاجتماعية والسياسية للشخص، فالكنيسة ليس لها حق في أن يمتد سلطانها إلى الحقوق الشخصية للإنسان بسبب إيمانه . لا شك أن جون لوك يؤسس فلسفيا لمفهوم المواطنة، حيث ان المواطن له الحق في أن يمارس حياته بشكل طبيعي متمتعا بجميع حقوقه، بعيد عن موقفه الإيماني يقول: فكل الحقوق والامتيازات التي تخص هذا الشخص من حيث هو إنسان أو من حيث هو مواطن من اللازم أن تكون محفوظة له ودون أن تنتهك. ذلك أن هذه الحقوق والامتيازات لا علاقة لها بالدين. ومن ثم يجب ألا يلحق هذا الشخص أي عنف أو ضرر سواء كان مسيحيا أو وثنيا.
- كما يرى لوك على ضرورة حفاظ الشخص على حقوقه المدنية حتى وان كانت آخرته (ما بعد موته) سيئة، ذلك أن حقوق الدنيا تبقى محفوظة، وليس لها علاقة بموقف هذا الشخص من الآخرة. اما علاقة الكنائس المتمهذبة بمذاهب مختلفة، فيما بينها ، فيجب أن تخضع للتسامح، و احترام المتبادل بينهما فيما يخص مبادئ كل كنيسة.
- يدعو جون لوك إلى الفصل بين الدين والدولة، واستقلال الواحد منهما عن الأخر ، فلا يجوز أن يتدخل الحاكم في شؤون الكنيسة من اجل يطلب منها نبذ

شخص ما منها، كما لا يجوز أن تطلب الكنيسة دعما من الحاكم، فحتى تحافظ الكنيسة على مكانتها الدعوية والنصيحة ، يجب تحافظ على نفسها كمجتمع مستقل.

- **المنطق الفلسفي لجون لوك**:

لا شك ان حون لوك ، في هذا النص ، وفي رسالته " التسامح" يوظف آليات حجاجية من اجل تدعيم موقفه الفلسفي، فيبتدئ رسالته بنصوص دينية مأخوذة من الإنجيل، وينتهي إلى الحجج العقلية ليرد على المتعصبين الذين يوظفون الدين في السياسة والعكس، ينطلق لوك من استدلال مقدماته: الحياة حق طبيعي لكل شخص، الدولة تتكفل بالحق الطبيعي للشخص. الأشخاص أحرار فيما يعتقدون-إذن : الكنيسة ليس لها حق بان تفرض عقيدتها بالقوة بل بالإقناع والنصيحة.

تأتي رسالة لوك في التسامح لتنظم العلاقة بين الدين والدولة، بأن لا يتدخل الواحد منهما في الأخر، وجاءت لتنظر في العلاقة القائمة بين المذاهب المختلفة لتأسيس التسامح القائم على الاحترام بدل التناحر والتقاتل.

أعمال موجهة : تحليل النصوص التالية:

1 - نص لهوسرل: الفلسفة علما دقيقا.

إن ما يميز المذهب الطبيعي في جميع صوره المتطرفة والمتسقة ابتداء من المذهب المادي في صورته الشعبية إلى احدث صور المذهب الواحدي الحسي ومذهب الطاقة الحية، خاصيتان: تطبيع الشعور من ناحية بما في ذلك جميع معطيات الشعور القصيدة ومن ناحية أخرى تطبيع الأفكار وبالتالي سائر المثل العليا والمعايير المطلقة.....

ذلك ان الطبيعة خالدة، فما يمتلكه الشيء – اعني الشيء الخاص بالطبيعة لا الشئ المحسوس الخاص بالحياة العملية او الشئ كما يظهر على نحو محسوس من خصائص حقيقية او تغيرات للخصائص، يمكن تحديده بطريقة صحيحة موضوعيا والتحقق منه او تصحيحه في تجارب متجددة دائما ، أما أي شيء نفسي او آي ظاهرة فهو يذهب ويجئ ولا يحتفظ بوجود باق، يظل في هوية. اعني وجودا يقبل ، من حيث هو كذلك التحديد موضوعيا بالمعنى المعروف في علم الطبيعة، اي بوصفه – مثل – يقبل الانقسام موضوعيا الى عناصر مكونة قابلة للتحديد بالمعنى الدقيق للكلمة. فالتجربة لا تستطيع ان تخبرنا ما هو الوجود النفسي بنفس المعنى الذي يصدق على الفيزيائي ذلك لان النفسي لا يجرب على انه شيء يظهر بل انه تجربة معيشة ، وتجربة معيشة ترى في التأمل الانعكاسي ، فيظهر على انه نفسه

من خلال نفسه، في سيلان مطلق على انه حاضر الان وآخذ في التغيب بالفعل ويمكن ادراكه بوضوح بوصفه راجعا القهقرى

2– النص الثاني: لجادامير

وعلى النقيض من ذلك، فإن ظاهرة الذوق هي ملكة فكرية تخص التمييز ويفعل الذوق فعله في المجتمع ، لكن ليس تابعا له، وعلى العكس ، يتميز الذوق السليم بحقيقة انه قادر على تكييف نفسه باتجاه الذوق الذي تمثله الموضة او العكس بالعكس، أي انه قادر على تكييف ما تتطلبه الموضة إلى الذوق السليم الخاص

إذن، يتمثل جزء من مفهوم الذوق في أن المرء يلاحظ المقاييس حتى في الموضة من دون إتباع أملاءاتها بعمى، بل باستخدام الحكم الخاص ويحافظ المرء على أسلوبه الخاص ، أي انه يربط متطلبات الموضة بكل، يصون الذوق الخاص ويقبل ما ينسجم مع هذا الكل ويتطابق معه فقط

وبناء على ذلك ، لا يدرك الذوق الجمالي جمال هذا الشئ او ذاك ، بل إن له عينا على الكل الذي ينسجم معه كل شيء جميل، وهكذا ليس الذوق حسا اجتماعيا ، بمعنى انه يعتمد على كلية تجريبية ، على إجماع كامل من الآخرين ،فهو لا يزعم أن كل فرد سيتفق مع حكمنا بل على كل فرد أن يتفق معه. يحتفظ الذوق الثابت

بحرية محددة وتفوق ضد طغيان الذي تمارسه الموضة،.... وهكذا يكون الذوق مقصورا على الجميل في الطبيعة والفن ويكون الحكم عليه بموجب خاصيته التزيينية ولكنها تشمل مجمل عالم الأخلاق والسلوكيات الحسنة .

جورج غادامير ، الحقيقة والمنهج ، ترجمة: حسن ناظم، ص92،93

٣ - تلخيص نص لكارل ياسبرس: في مقالة بفهم وأسلوب خاص من كتابه: تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية

تتراءى لي الأشكال جليلة،
والتذكارات أجل،
(البيتان رقم ١٧٨٩ و ١٧٩٠).

ج - ينبغي أن يكون تاريخ الفلسفة بسيطاً

لو نظرنا إلى تاريخ الفلسفة نظرة خارجية لوجدنا أن مادته لا حدَّ لها ولا نهاية. وعندما يركِّز هذا التاريخ في كل واحد، يتحول غياب الحدّ والنهاية إلى تجربة باللانهائية.

وينبغي على تاريخ الفلسفة في مجموعه أن يتوخّى البساطة (فدوائر المعارف وحدها هي التي تحرص على تجميع المادة المهمة، أو المادة التي يمكن أن تصبح مهمة في يوم من الأيام). كما يجب أن يجتهد تفسير هذا التاريخ في إلقاء الضوء على الفكرة الأساسية، وأن يحرص على البساطة دون تبسيط، ويبرز الجوانب الجوهرية مع العدول عن الجوانب العَرَضية والثانوية. ولا تتأتّى البساطة بلصق الشعارات السريعة، وإجراء التصنيفات السطحية، بل بالنظرة النافذة التي تدرك البسيط وتفطن لإمكانية التطور اللامتناهية الكامنة فيه. وليس تأثر المرء إلى حدّ الانفعال، ولاشغفه بتحقيق هذه الغاية أو تلك، دليلاً على البساطة، وإنما الدليل عليها هو أن تستولي عليه وتأخذ بمجامع نفسه. وليس البسيط هو ما نفهمه في سهولة ويسر، وإنما هو الذي يساعد على تركيز العقل وتجمع الروح.

ويتحتم على تاريخ الفلسفة بمعناه الحقيقي أن يحاول إدراك الأصول والخصائص الأساسية، بجانب إدراك الوثبات الجديدة والقمم الرفيعة، بحيث يجعلنا نفهم علاقتها بالكل، ونشعر بتعبيرها الأمين عن الواقع. كذلك يتعين عليه أن يتخلّى عن الاهتمام بالوفرة في المعلومات التي يسهل الحصول عليها لكي يتمكّن من إظهار الثراء الكامن في الأفكار والحقائق

التي تملك النفس وتستولي عليها. وينبغي عليه في النهاية أن يتوصّل إلى عنصرها البسيط الذي يحسم الأمر ويفصل في اتخاذ القرار.

بهذا يمكن لهذا التاريخ ـ الذي يسير على طريق البحث عن المبادىء الأساسية، وحركات الوعي المطلق ومواقفه الكبرى، والعوالم والأبنية الرئيسية ـ أن يتحوّل إلى مدخل إلى الفلسفة. إنه يكشف لنا عن المسار الفلسفي نفسه، وما انتهى إليه خلال صيرورته عبر الظواهر والأشكال التاريخية. ولكنه يكشف عن هذا المسار في بساطته. وهذه البساطة تكثّف حضور الفكر، وتحول دون تلاشيه في التجريدات. وهي تبرز من أعماق الباطن وتحقق في الحاضر ما لو رأيناه من الخارج لوجدناه يتبدّد في تشتت الآراء وتعددها بغير نهاية.

د ـ ينبغي أن يكون تاريخ الفلسفة نفسه فلسفة:

لماذا نشغل أنفسنا بتاريخ الفلسفة؟

ربما كان الدافع على ذلك هو الفضول: لكي نتعرّف تاريخ الأوهام البشرية، أو ربما كان وراءه الاعتقاد بضرورة نفسية واجتماعية مزعومة: لفهم مرحلة منتهية من مراحل التطور الإنساني، وهي المرحلة السابقة على عصر العلم، وتتبع سياق الأسباب والمسببات العجيبة التي أدّت إلى اكتشاف الصواب من ثنايا الخطأ، وظهور الحق من خلال طوايا الباطل. وربما جاء الاهتمام بتاريخ الفلسفة عن ميل إلى الترف العقلي: فينكبُّ الإنسان على لعبة عقيمة يملأ بها أوقات فراغه، أو عن حذلقة جوفاء تسجّل كل ما وقع بحذافيره، وتضع كل ما يمكن أن تطلق عليه صفة الفلسفة في موسوعة تضمُّ وقائع التاريخ العقلي التي لا حصر لها.

غير أن أمثال هذه الدوافع وما شابهها غير كافية؛ وهي ترتدُّ في النهاية إلى نفي الفلسفة وإنكار حقيقتها. إنها تبيّن أن السبب الكافي للاشتغال

بتاريخ الفلسفة لا يمكن إلاّ أن يكون هو التفلسف أو التأمل الفلسفي نفسه. ولن يكون لهذا الاشتغال معنى إلاّ إذا انشغلنا بالأسئلة والأجوبة التي نلتقي بها في تاريخ الفلسفة. وإذا لم نفعل هذا فلن يخرج الأمر عن تحصيل معلومات عقيمة؛ معلومات خارجية عن واقع مضى ولم يعد يعنينا في شيء. أو ربما لا نخرج ـ بإنكارنا للفلسفة على هذه الصورة ـ عن تحقيق بقية من الفلسفة أو فلسفة سلبية تتسلّى باللهو الطائش بالأفكار الفلسفية، وتفرغها من معانيها، وتعبث مع ذلك بعظام أجسادها الميتة عبث المشعوذين، أو تستخدمها في تعذيب النفس.

ولا معنى لتاريخ الفلسفة إلاّ بالقياس إلى التفكير الفلسفي نفسه، الذي يشعر بانتمائه الأصيل إلى الشخصيات التاريخية المعبِّرة عنه، ويحرص على تأكيد حياته بمداومة النظر فيها. إننا نريد أن نجد فيه ما يحثُّنا على التفلسف؛ نريد أن نجرِّب في الحاضر ما هو بطبيعته أبدي، وإنْ كان لا يظهر في التاريخ إلاّ في صور وأشكال جزئية. ونحن نفهم أنفسنا حين نفهم تاريخ الفلسفة، ونستمدُّ الشجاعة من النماذج التي يقدمها لنا. كما أننا نتواضع ونعرف حدودنا عندما نرى أن كل ما هو عظيم قد كُتِب عليه الفناء والعزلة، وأنه يظل في نهاية المطاف شخصياً وفريداً. ونحن ندخل في حوار باطن مع الماضي، ونمدُّ آفاق حاضرنا عبر آلاف من السنين. إن هذه الآلاف من السنين لم تنطوِ بالنسبة إلينا، فعلى كل واحد منا أن يقرر بنفسه ماذا يبقى منها حيا، وماذا يستحق أن يُبْعَث للحياة، ماذا سيطويه النسيان، أو سيلحق بنا على جناحيه، أو يتركنا في حال من اللامبالاة وعدم الاكتراث.

إن إقبالنا على تاريخ الفلسفة عن رغبة واهتمام هو نفسه نوع من التفلسف. ولا بدَّ الآن من توضيح هذا عن كَثَبٍ:

(١) لن يفهم الفكرة الفلسفية إلاّ مَنْ يَقْدِرُ على التفلسف. ويعتقد بعض

الناس اعتقاداً ساذجاً أن معرفة اللغة التي كُتِبَ بها النص الفلسفي تكفي لفهمه فهماً عقلياً واضحاً، ويأخذون هذه المسألة كأنها أمر بديهي. ولكننا نطرح هذا السؤال: وماذا نفهم نحن حقاً من فلسفة الماضي؟ إن الإحاطة بالمؤلفات الموجودة، ومعرفة المضمون العقلي للأفكار المثبتة فيها، والإلمام باستدلالاتها الصورية، والقدرة على تحديد التصورات والمفاهيم؛ كل هذا الذي ذكرناه لا يرقى إلى مستوى الفهم. فالفهم معناه أن نضع أنفسنا في ما نريد فهمه، لنتمكّن من إعادة التفكير فيه انطلاقاً من الأصل الذي انبثق عنه؛ تتبع الفكرة العقلية لإدراك الحَدْس (أو العيان) اللامعقول الذي عبّرت عنه ومشاركة المؤلف فيه؛ السماح لما لا يمكن قوله باللغة المباشرة بالتأثير على أنفسنا؛ الإنصات لما أراد المفكّر أن يوصله إلينا بطريقة غير مباشرة. مثل هذا الفهم الحقيقي لا يتيسّر إلاّ في حدود معينة، وبشروط ترجع إلى القارىء نفسه الذي يسعى إلى الفهم، وترتبط بحياته العقلية، وموقفه، وواقعه.

إن الذي يقدر على طرح السؤال الفلسفي هو الذي يستطيع أن يكتشف الجوانب الفلسفية المهمة في النصّ. والقاعدة تقول: «لا يدرك الشبيه إلاّ الشبيه». ولكن ليس معنى هذا بحال من الأحوال أن نلتمس من النصّ تأييد رأي أو فكرة تشغلنا. وليس معناه كذلك أن تاريخ الفلسفة «ترسانة» نستخرج منها الأسلحة والحجج التي تبرّر تفكيرنا الراهن (وكأن أمر التاريخ في ذاته سواء، أو كأن الحاضر يمكنه أن يستقلّ بنفسه ويستغني عن أساس يستند عليه). فالواقع أن الأمر على العكس من ذلك، وأن القارىء الذي يتفلسف بنفسه يستطيع أن يدرك الأفكار الفلسفية ولو كانت مضادة له، غريبة عليه، تابعة من أصول أخرى مختلفة عن أصوله تمام الاختلاف. إن المهم في الحقيقة هو التفلسف في حدّ ذاته، فهو الذي يتيح لي أن أتفلسف مع كل فيلسوف وأن أشارك في كل فلسفة ممكنة. ومع ذلك

فثمة حدٌّ جديد يقف عقبة أمامنا، ويتصل بما نسميه «المستوى». فعلى المستوى الذي يستند إليه وجودنا وتفكيرنا يتوقف فهمنا لما هو قريب منا، أو مضاد لنا وغريب عنا. ومن السهل علينا أن ننفذ ببصرنا إلى المستويات الدنيا ونحيط بها، أمّا المستوى الذي يرتفع عن مستوانا فيظلُّ عصياً ممتنعاً علينا. من أجل هذا يثير فينا التفلسف الأصيل موقفاً أساسياً: فنكون على استعداد لتسلق المستوى الأعلى، أو على الأقل لرؤيته والانتباه إلى وجوده، بحيث يصبح بالنسبة إلينا حدّاً ودافعاً يحفزنا على التقدم، ويدلّنا على سر لم ينكشف حتى الآن. وهذا الموقف الذي ذكرناه يتطلّب القدرة على الإنصات وردّ الفعل، والشعور بأننا لم نفهم بعد، وأن علينا أن نبذل الجهد للتوصل إلى الفهم. بحيث يكون هذا الفهم فعلاً باطناً تكابده النفس بكل كيانها لا مجرد نَظَرٍ عقلي.

وينتج عن هذا من ناحية أخرى أن نفقد كل اهتمامنا بالمؤلّف الذي اعتقدنا يوماً ـ وهذا أمر نادر ـ أننا قد أحطنا بتفكيره كله. ذلك لأن مثل هذا المؤلف لن يكون في نظرنا فيلسوفاً، ولن يبقى منه إلاّ الفكر العقلاني الذي يتعامل مع المفاهيم، ويعرفها، ويوفّق بينها، ويتصوّر أنه قد وضع يده على الكل. بيد أن المفكرين الذين لهم شأن في تاريخ الفلسفة هم أولئك الذين يكافحون ويصارعون؛ أولئك الذين لا يدّعون أن السرَّ قد كشف لهم القناع عن وجهه، والذين ندرسهم فلا نتعلم منهم مادة معرفية فحسب، بل يشدوننا في مجرى الصراع الدائر في داخلهم، ويعيتوننا على تجربة دوافعهم ومطامحهم. ولن تكون لدراسة تاريخ الفلسفة أية قيمة ما لم يستمر فيه الكفاح المتصل للوصول إلى الرؤية الفلسفية الخاصة.

لنتمسّك إذن بالتواضع ونحن نقبل على هذه الدراسة. فلم يتسنَّ حتى الآن لإنسان واحد أن يطّلع على جميع مؤلفات جميع الفلاسفة، أو يعرف كل اللغات التي تمَّ بها التفلسف معرفة كافية. أضف إلى هذا أن حدود

تفلسفنا الخاص هي نفسها التي تحدُّ من قدرتنا على تصور تاريخ الفلسفة وفهم قدامى الفلاسفة. ولهذا فإن هذه القدرة تنمو وتتزايد بمقدار نمو تفكيرنا الخاص واتساع أفقه.

(٢) إن استيعاب تاريخ الفلسفة متضايف مع التفلسف الشخصي. وليس معنى هذا على الإطلاق أن يوَجَّه هذا التاريخ أو يُبْنَى ويقوَّم من وجهة نظر فلسفية محددة؛ لأننا بهذا سننظر إليه من الخارج نظرة غير تاريخية. ولن يكون استيعابنا لتاريخ الفلسفة فلسفياً إلاَّ إذا وفَّقنا في الاحتفاظ بوعينا بالشامل، وتمسُّكنا بفضل هذا الوعي بقدرتنا على الحركة وسط وجهات النظر المتعددة، وحرصنا على الانفتاح العالمي على كل ما يتسم بالطابع الفلسفي الحق.

من أجل هذا كله تتعذَّر كتابة تاريخ الفلسفة من وجهة نظر محددة؛ فليست الفلسفة عبر تاريخها كالوجه الإنساني الذي يمكننا رؤيته ووصف ملامحه بنظرة واحدة: من حيث مراحل تطوره الموضوعي، وظروفه وشروطه الاجتماعية والنفسية والبشرية... إلخ. (فكل هذه مناهج بحث مفيدة تتصل بوقائع، وظواهر، وجوانب جزئية مختلفة، دون أن تمسَّ ماهية الفلسفة نفسها). وليس من سبيل إلى الفلسفة إلاَّ بالتفلسف نفسه ومن داخله: قد يستطيع الإنسان أن ينفذ إليه، ولكنه لن يستطيع أن يحيط به إحاطة شاملة.

والنفاذ إلى صميم التفلسف لا يعني تبني وجهة نظر محددة، كما أن الاستيعاب التاريخي لا يعني تطبيق نسق ثابت أو تخطيط مسبق. إن فهم أفكار التراث وفلسفاته بفضل المعرفة المشتركة التي يكفلها «الشامل» هو الذي يجعلنا قادرين على التواصل الذي تتضح الأصول في ضوئه. ومَنْ يدرس مؤلفات أحد الفلاسفة السابقين في إطارها التاريخي، ويلمس أعماقها الدفينة، سيحسُّ هو نفسه بواقعه التاريخي الخاص، وتنكشف له

أعماقه التي لا يُسْبَرُ غورها. والمهم قبل كل شيء هو مدى توغّل ذلك الشيء ـ الذي ينبثق من التاريخ ليوقظني ـ في أعماق الشامل الذي أكونه أنا نفسي. والمهم أيضاً هو مَنْ ينصت في داخلي وما الذي يُنْصَتُ إليه. إن التفلسف المشترك لينفذ ـ عبر التاريخ ـ في مجال إنسانيتنا ويكوّن التاريخية الواحدة التي يقوم عليها وجودنا بأكمله. والذي يهدينا ويقود خطانا هو وعينا بالأصل الواحد، والمصير الإنساني المشترك. كذلك فإن تاريخيتي الخاصة وتاريخية المفكر الغريب عني لا تفصلنا فصلاً مطلقاً، وإنما تربط بيننا برباط التاريخية المشتركة التي لن نتمكن أبداً من إدراك كنهها أو تحديد شكلها، وإنْ كان التواصل هو الذي سيجعلنا نشعر بها في صيرورة الوجود الكوني بأسره.

لهذه الأسباب لا توجد حقيقة وحيدة في صورة وجهة نظر أو نَسَق محدد. ولا يمكن أن تدّعي الحقيقة أنها هي الحصيلة النهائية للمعرفة الراهنة وأن كل معرفة يجب أن تُرَتَّب على أساسها بحيث تكون مجرد إعداد وتمهيد لها.

وليس في تاريخ الفلسفة كذلك مركز واحد أو نقطة ثابتة ونهائية ـ كتلك التي يتصوّرها التفسير المسيحي للتاريخ في صلب المسيح ـ، بل هنالك المكان اللانهائي الذي تعبّر فيه الحقيقة عن نفسها بأصوات متعددة المعاني. وكل محاولة لتثبيت دائرة المفكرين العظام ستكون أشبه بلاهوت جديد، إنْ لم تكن نوعاً من التعبير الجمالي عن عدم الإحساس بالمسؤولية.

لا شكّ أن المفكرين الكبار يتفوقون علينا تفوقاً لا حدّ له في عظمتهم وقوة إبداعهم وعمق وجودهم، ولكنهم بشر يشاركوننا المصير نفسه وليسوا آلهة. وإذا كنا ننظر إليهم نظرتنا إلى القدوة والمَثَل، فليس معنى هذا أن نقلّدهم أو نقتفي آثارهم على طريق محدد مرسوم، بل معناه أن نتابعهم في

السير على الدروب الباطنة التي لم تُكتَشَف بعد.

(٣) إن رفض تجميد تاريخ الفلسفة في مجموعة من الحقائق الموضوعية، القطعية، النهائية، لا يمنع ضرورة اكتسابه شكلاً ملائماً؛ فلا بدَّ له من أن يتخذ شكلاً كلياً بالنسبة لعصره ولقدرة المفكرين المعاصرين على الفهم. وهذا التصور التاريخي الشامل يسهم في تحديد شكل التفلسف الحاضر. فإذا تغيَّر التفلسف تغيَّرت معه طريقة تصور تاريخ الفلسفة واستيعابه.

ومعرفة هذه التغيرات تؤثِّر حتماً على طريقة الاستيعاب. صحيح أن هذا الاستيعاب يلجأ إلى صُوَر ثابتة، ولكنه يحرص على الاحتفاظ بقدرته على الحركة والتغير الممكن. وتنشأ رؤية جديدة لتاريخ الفلسفة عندما يتغيَّر التفكير الفلسفي نفسه فجأة بحيث تبدو الصور التي دَأَب تاريخ الفلسفة على استخدامها حتى ذلك الحين مُحرَّفة أو مشوَّهة، ويطرح الناس على أنفسهم هذا السؤال: ما الصورة التي يجب أن يتخذها تاريخ الفلسفة في ظلِّ الظروف والأوضاع الجديدة؟ كيف تتصوره، على سبيل المثال، تصوّراً وجودياً؟ وكيف يتعرَّف تفكيرنا الفلسفي الخاص على تفكير العصور القديمة؟ بل كيف نعرف أن تفكيرنا ـ الذي تصوَّرنا للحظة واحدة أنه جديد كل الجدة ـ ينعكس على صفحة التفكير القديم الموغل في القدم؟ وكيف نقضي على وهم الجدَّة بحيث تَشُفُّ من خلال الثوب التاريخي المعاصر تلك الفلسفة الخالدة التي تربطنا بجميع الفلاسفة السابقين؟.

(٤) إذا كان الاستيعاب الأمثل للفلسفة يقتضي التخلي عن كل وجهة نظر، وإسقاط كل نَسَقٍ أو تخطيط مسبق، فإن رائدنا في ذلك لن يكون شيئاً قليلاً (كأنْ نقع في السوقية والفوضى)، بل سيكون كثيراً: سيكون هو الواقع وهو الحقيقة التي نحيا عليها، ونقيس ونحكم، ونقبل ونرفض وفقاً لها، بحيث لا نجمد أو نثبت عند معيار موضوعي معين. وسيكون علينا أن نحافظ على رَحَابة هذا الواقع وعمقه وثراء معانيه كما خَبِرْنَاه في تفكيرنا الفلسفي،

وتعرّفناه في فلسفات الماضي. وستزداد قدرتنا على الكشف بمقدار قربنا من الواقع.

إن أي محاولة تهدف للوصول إلى معرفة ثابتة ـ حتى ولو كانت غامضة ـ بالواقع والحقيقة بمعناهما الفلسفي ستكون في النهاية معرفة غير كافية، وستلجأ إلى التفسير السطحي الذي يبسّط كل شيء، سواء في ذلك أقُدِمَت المنفعة العملية للمعرفة أم جُعِلَت الصدارة للدقة اليقينية الملزمة. وسترجع بوجه خاص إلى المعرفة التجريبية والموضوعية في علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الحياة (وعندئذ تصبح الفلسفة وظيفة للحياة، ويستوي في ذلك أن تمدَّ الناس بالأوهام الضرورية وتحجب عنهم العيوب والشرور، أو أن تصبح نوعاً من العلاج النفسي أو قوة دافعة على الانطلاق)، أو تُرَدَّ إلى الوضوح العلمي للوعي بوجه عام، أو إلى الأخلاقية التي تضع المُثُل العليا وتشرّع قواعد السلوك. لا شك أن كل هذه الاتجاهات تحتوي على جزء من الحقيقة. ولكن التفسير الذي يستوعب تاريخ الفلسفة بأكمله ينبغي عليه أن يجعل تعدد أبعاد حقيقة فعلية تتمثّل في تشابكها اللانهائي وحركتها المتصلة (ولا تجعل منها مجموعاً مُرَكَّباً من عناصر بسيطة)، كما ينبغي عليه ألاّ يهمل المعطيات المباشرة الملموسة (كالمواقف الاجتماعية والأمراض العقلية... إلخ.) بل يقبلها على ما هي عليه، ويسجّلها ويحدد أهميتها، دون أن يتجاهل الجوانب الخيالية العجيبة، بل يحاول جهده أن يكتشفها ويستخلص منها مضموناً واقعياً. غير أن تعدد التفسيرات على هذه الصورة أمر يتهدده التشتت والتفتت. فأين نجد المركز؟ أين نعثر على الواحد والكل الذي يتعلّق به كل شيء ويرجع إليه كل تفسير؟ إنه تكشُّف الوجود في الإنسان؛ فمن خلال جميع أشكال الشامل ـ الذي يكون هو نفسه، ويعرف فيه نفسه بوصفه وجوداً يستشرف العالي ـ يحقق الإنسان ما يدرك أنه وجوده الأبدي تحقيقاً تاريخياً، بحيث

يرتبط وجوده بالمعرفة التي يحصّلها، ويصبحان شيئاً واحداً.

(٥) إذا كان «الشامل» هو الأصل في كل محاولة لاستيعاب تاريخ الفلسفة، وهو الموضوع الذي لا سبيل للوصول إليه، فإن هذا الاستيعاب يتمُّ بطريقة عينية ومحددة من خلال موضوعية المُعْطَى في الواقع، أي من خلال دلالته، وتخطيطه، ومشروعه، والهدف منه... إلخ. وينظر مؤرِّخ الفلسفة فيرى أمامه المجال الشاسع الذي تتراكم فيه مواد لا حياة فيها. ويبدأ بفرز هذه المواد على مستوى الوقائع ووضعها في غربال النقد العلمي. والحقيقة أن «الشامل» هو المعنى والواقع في آن واحد؛ وكلاهما لا يُفْهَم إلاَّ بطريقة غير مباشرة في شيء اتخذ صورة موضوعية محدودة. وعلينا أن نتحسَّس حركات الشامل من خلال الوقائع. ولهذا ينبغي البدء بفحص الوقائع وتمحيصها للتأكد مما حدث في الواقع. ثم تأتي لحظة الإنصات والاستبار واستكناه حقيقة ما كان.

بهذا ينشقُّ الواقع للحظة إلى واقع تجريبي وآخر جوهري. ونلاحظ شيئاً يتحقق بأعمق ما للتحقق من معنى، ولكنه يبقى معزولاً، معدوم الأثر، ويسقط في النسيان. ومن طبيعة الذروة العالية أن تتخذ محاولة الاقتراب منها في تاريخ الفلسفة هذا الطابع المؤقت؛ فليس من الممكن أن نثبتها في صميم الأصل، بل يتحتَّم محاصرتها والدوران حولها من الخارج - ربما يستطيع المؤرخ أن ينفذ إليها بتفسيره، ولكن يستحيل عليه الإحاطة بها. وأسباب تأثيرها أو عدم تأثيرها على مجال الواقع لا تكمن فيها هي وحدها، وإنما ترجع كذلك إلى مواقف جزئية وشروط خارجية؛ بحيث إن التفسيرات التجريبية التي تُقَدَّم لها لا تكون أبداً تفسيرات نهائية شاملة.

وعمليات التحريف والتعديل التي تتعرَّض لها «الذروة» وتجعلها تتحول إلى أشكال تساعد على انتشارها واتساع نطاق تأثيرها عمليات ملازمة لطبيعتها، ولكنها ليست قوانين مطلقة بغير استثناء؛ فهي تلقي

الضوء على النتائج، ولكنها لا توضح الجوهر نفسه.

إن تاريخ الفلسفة بمعناه الحقيقي هو حركة صيرورة التفلسف الذي ندركه عندما نقترب منه لمحاولة فهمه، ونتأمل عالمه، ونتدبّر نتائجه. ولكن أصول هذا التفلسف هي الحد الذي ينطلق منه كل شيء، ويتّجه إليه كل شيء، وإنْ كان من المحال أن تصبح موضوعاً أو واقعاً يمكن بيانه بطريقة موضوعية محددة. وأكثر تفسيرات تاريخ الفلسفة حظاً من التفلسف هي تلك التي تمكننا من الإحساس بالذُّرَى، والأصول التي يتوقف عليها كل شيء، وتساعدنا على ألاّ نفقد علاقتنا معها، وأن نبقى على صلة مستمرة بها.

بهذا يمكن أن يتحول البحث في تاريخ الفلسفة في نهاية الأمر إلى مصدر تأثير وفاعلية فلسفية متجددة؛ فلا يُستبعَد أن ينطوي المجال الفسيح ـ الذي تتكدّس فيه أنقاض المواد والمعلومات التي يخيم عليها الموت ـ على بذور خفية يمكن أن تُبْعَثَ إلى الحياة أو أن تدبَّ فيها الحياة لأول مرة، وذلك إذا استطعنا أن نعثر عليها، ونتعرّفها، ونعيد غرسها مرة أخرى. لقد كان هنا شيء لم يُسْمَع له صدى، وهو ينتظر مَنْ يستخرجه من النصوص ويفسّره. عندئذ يظهر للنور وتزدهر فيه الحياة. ولا يندر في التاريخ أن نعثر على حركات جديدة انبثقت من معطيات أو «لُقًى» تاريخية تمّ الكشف عنها؛ فقد تعلّم الإنسان كيف يقرأ نصّاً ويفكّ رموزه، بعد أن ظلّ قروناً طويلة ضحية عدم الفهم أو سوئه.

(٦) إن مؤرخ الفلسفة يجد أمامه فرصة اختيار المفكرين الذين يمكنه أن يرتبط بهم ويتخذهم قدوة أو يعدهم على العكس أضداداً له. وهناك تنفسح أمامه طرق ودروب غير مطروقة يكون حراً في أن يسير فيها أو يتجنبها. كذلك فإن وضوح اختياره هو الذي يلقي الضوء على ميوله ودوافعه.

لهذه الأسباب كلها تكون دراسة تاريخ الفلسفة دراسة فلسفية.